مقاصل الدماء و
أسطورة الرجل الذئب
Looloo
dvd4arab

١ ـ ليلة رهيبة ..

كنت في ذلك الوقت شابًا في الخامسة والثلاثين من عمري لا أعرف شيئاً عن عالم ما وراء الطبيعة وكنت أومنُ أن العلم قد عرف كل شيء .. كنت ساذجًا بالطبع ..

سافرت إلى بريطانيا لحضور مؤتمر أمراض الدم الذي يحضره نخبة من أساتذة هذا العلم في العالم كله ، لكن كما هو معروف ـ ليست المحاضرات مشوقة إلى هذا الحد ، وقد قضيت في ذلك اليوم أربع ساعات من أسود ساعات حياتي أصغي لكلام كثير عن سرطان الدم . وأنيميا البحر المتوسط ... و ... و ...

كان الأطباء الجالسون قد أصيبوا بذلك النوع من الملل والتعاسة والتجمد الفكري الذي أوثر أن أسميه (ذهول المؤتمرات) ، كانوا جميعًا قد فقدوا الإحساس بظهرهم وأطرافهم . وتحولت أرادفهم إلى جزء من المقاعد ، وبعضهم أخذ يزجي الوقت في الحديث همسًا وهم يضعون أيديهم على أفواههم كتلاميذ المدارس ..

ـ شكرًا ..

وللحظة لم يصدق هؤلاء البؤساء آذانهم لكن الرجل

كان قد انتهى بالفعل من محاضراته الطويلة ، من ثم تعالت تنهدات العرفان بالجميل ، وبدأوا يصفقون له شاكرين !

كان المحاضر كهلًا وسيمًا اسمه (ريتشارد كامنجز) قابلته فى مصر أكثر من مرة وانبهرت به بشدة ، كان شامخًا مهيبًا عصبيًا مغرمًا بالتاريخ والفن وكان يعشق تاريخ الفراعنة وكانت هذه نقطة تلاقينا ..

بعد المحاضرة قابلته ، وعلى الفور هش وبش لى وبدت السعادة على وجهه ، بل إنه صافحنى (وهو شىء غير معتاد من الانجليز) ثم إنه سألنى عن رأيى فى المحاضرة فكذبت عليه فى كياسة قائلًا إنها رائعة ، دعانى إلى بيته الريفى فى (يوركشاير) ؛ لأننى - كما قال - إنسان متحضر وشديد الإخلاص للعلم ..

لهذا - وكما علمتنى التقاليد الانجليزية الصارمة - وجدتنى أجتاز مدخل حديقة البيت الانجليزى الجميل فى تمام السابعة مساء .. وكان القمر يرخى ضوءًا هادئًا رقيقًا على غصون اللبلاب المتدلية فوق سقف البيت المنحدر ، وفى الحديقة كنت تشم روائح غير مألوفة لزهور لا تعرف اسمها ..

وفى الداخل كان البيت أنيقًا بسيطًا ، بيت أسرة كاثوليكية متدينة .. وفى قاعة الجلوس كانت هناك

مجموعة كبيرة من الصلبان الأثرية ، ولوحة كبيرة للعشاء الأخير ، وكانت زوجته فى منتصف العمر مهذبة رقيقة ، أما ابنته كاترين فكانت مراهقة لكنها أكثر تعقلًا من سنها ..

وأدركت كم هم متدينون حين تلوا قبل العشاء صلاة المائدة ، من ثم شعرت بالخجل من نفسى لأننى نسيت البسملة على الطعام قبل أن أبدأ الأكل .. تمتمت أن بسم الله أوله وآخره ، وشرعت أملأ بطنى من الأصناف جميلة المنظر ، شنيعة الطعم ، التى عرف بها المطبخ الانجليزى فى أوروبا كلها ..

بعد العشاء - وفى حجرة المعيشة المريحة - جلس د . ريتشارد جوار المدفأة يدخن غليونه ويرشف القهوة فى استمتاع وقد بدا لكلينا أن الحياة لن تكون أبدًا أروع مما هى عليه الآن ..

قال د . ريتشارد : كيف تشعر وأنت من سلالة الفراعنة هؤلاء العباقرة ؟

ابتسمت ولم أدر بماذا أرد ، فغمغمت : .. بالندم وبالحسرة لأننى لم أحفظ حضارتهم وكل ما اكتشفوه ..

أحيانًا يخيل لى أنه لم يعد هناك ما يمكن اكتشافه بعد كل ما اكتشف حتى اليوم ..

أعتقد أن زمن (الكشوف) قد ولّى وبدأ زمن (التطوير) .

وهنا يبدأ دور رجل علم مثلى يؤمن بعلم ما وراء الطبيعة ويؤمن أن كل أسطورة لها أصل ما لم يحاول القدماء أن يتوقفوا عنده ، وهكذا نفتح أبوابًا جديدة ..

وجال ببصره فى الحجرة الخالية .. ثم همس :

ـ خذ عندك أسطورة الكونت دراكيولا ..إن أحدًا لم يحاول أن يتأمل فيها .. ، كانوا يبحثون فى الكهرباء والموجات الكهرومغناطيسية والانشطار النووى والمضادات الحيوية فلم يتوقفوا عند هذه الأسطورة أبدًا ، هنا يأتى دور رجل علم مثلى يؤمن أن هذه الأسطورة لم تأت من فراغ ويتوقف لحظة عندها ..

هناك شواهد تاريخية عديدة ومريبة .. الدم هذا السائل الأحمر الغامض رمز الحياة والموت معًا .. خذ عندك طقوس شرب الدماء فى الهند .. المومياوات ذات الأنياب التى وجدوها فى الصين ، ومآدب أهل أسبرطة التى كانوا يحتسون فيها الدم الممزوج بالخل والتوابل ، ودماء السلحفاة البحرية التى يشربونها لعلاج الروماتيزم فى جامايكا ..

وكتب السحر فى العصور الوسطى ، وكلها تتحدث عن طرد مصاصى الدماء كقضية مسلم بها ..

وهنا نبدأ ـ بمرونة فكرية ـ نجزم أنه فى وقت ما ، فى مكان ما ، تواجدت مخلوقات كابوسية تعيش على الدماء مثل دراكيولا ..

ـ أوه !

كان هذا هو صوت كاترين .. وكانت قد دخلت الحجرة لتوها فسمعت آخر جملة ، وسرعان ما اعتذرت بأنها ترغب فى الصعود لحجرتها ..

قال د . ريتشارد :

ـ هكذا أفضل .. هناك أشياء لا يجب أن يقولها المرء أمام النساء ..أنت تفهمينني ..

واتجه نحو النور الكهربائى وأطفأه ، فساد الظلام الحجرة فيما عدا نور المدفأة الهادئ الخافت .. ، وقال بطريقة درامية مؤثرة .

ـ هكذا يكون الجو مناسبًا لهذه الأحاديث الرهيبة !!

أحسست بالرجفة تسرى فى ظهرى ، وكان منظر لهيب المدفأة يذكرنى بالمشوار الذى ينتظرنى بعد هذه الأمسية فى العودة لفندقى .. البرد والخوف ..

توقف د . ريتشارد أمام إحدى اللوحات المعلقة يتأملها على ضوء المدفأة المتراقص ، وهمس :

ـ لقد بحثت وبحثت سنوات طويلة مع أحد رفاقى من علماء التاريخ .. واليوم أستطيع أن أقول إننا برهنا بالدليل

المادى على وجود الكونت دراكيولا ..

دوت الكلمة الكابوسية فى الظلام فأجفلت لها فى مقعدى ، والواقع أن د . ريتشارد كان مخرجًا مسرحيًا رائعًا ..

القصة كما يعرفها كل الناس هى قصة ذلك الكونت الذى عاش فى ترانسلفانيا فى القرن الرابع عشر .. كان شريرًا بكل ما فى الكلمة من معان ، ولكنه لم يكن من الموتى الأحياء .. إلا أن كاتبًا نشطًا أسماه (دراكيولا) أى الشيطان ، وخلده « برام ستوكر » فى قصته الشهيرة التى لم يزل الناس يرتجفون منها حتى اليوم .. ثم السينما العالمية .. «فنسنت برايس .. لون شانى» ليكملوا الصورة ..

اليوم أقول أنا : إن (دراكيولا) وجد فعلًا كما صورته القصص دون أية مبالغة ..

* * *

٢ ـ خادم الكونت ..

قلت فى حماسة :

ـ « لكن كلينا رجل علم ، وكلينا يعرف أن مالا يرى ولا يُسمع ولا يُشم ولا يُعقل ، هو ببساطة غير موجود .. » . ابتسم د . ريتشارد فى ثقة .. ثم اتجه نحو خوان فى ركن الغرفة وفتح درجه وأخرج ظرفاً ممتلئا ناوله لى ، وقال :

ـ اقرأ هذه الأوراق قبل أن تتحدث عن العلم ..

قبل أن أرد دخلت علينا (مسز كامنجز) باشة الوجه .. وبانجليزية حاولت أن أجعلها راقية شكرتها على العشاء .. ثم بدأنا حديثًا عن الطقس .. ثم أطريت بيتهم وأبديت إعجابى بلوحة العشاء الأخير المعلقة .. فشرعت تشرح لى قصة اللوحة ونظرات الدهشة المرتسمة على وجوه الحواريين ... و ... و ...

ـ هل تعلم سر تشاؤم الغربيين من سقوط الملح على المائدة ؟

فهززت رأسى معترفًا بجهلى .. قالت :

ـ لأن (يهوذا) الخائن مرسوم فى اللوحة وقد انسكب الملح على المائدة أمامه ..

هل ترى وجهه ؟ هذا وجه ارتسمت عليه كل خطايا

البشر .. إنه خاضع للشيطان لكنه مستسلم لهذا ولا يجد سبيلا آخر ..

كنت فى هذه اللحظة قد دخلت فى عالم اللوحة لكنى كذلك كنت أفكر فى المسافة الطويلة التى تفصلنى عن الفراش الدافئ وقراءة هذا المظروف الذى أحمله ..

وحين عدت للفندق تمددت فى الفراش وتأملت المظروف الذى أعطانيه د . ريتشارد ، وكان مليئا بأوراق قديمة وصور فوتوغرافية ..

كانت إحدى الصور لقصر أثرى غريب ، وأخرى لتابوت رخامى مغلق ، ثم صورة لشىء لم أفهم ما هو ، ثم صورة للوحة زيتية تمثل رجلا ملتحيا طويل القامة .. أما قطعة الورق الصفراء المهترئة فكان بها خريطة مرسومة بحبر أسود لقصر مجهول به سراديب سميت بأسماء سلافية لم أعرف حتى كيف أقرؤها ..

ألغاز كثيرة جدًا ..

أخيرًا ورقة بالإنجليزية ـ بخط د . ريتشارد ـ تقول :

« لقد بحثنا شهورًا فى سراديب قصر (الكونت دراكيولا) فى ترانسلفانيا ، وهو الذى منعت السلطات السياح من زيارته لأنه آيل للسقوط فى أكثر من موضع .. ، وأخيرًا وجدنا الخريطة المرفقة التى دلتنا على توابيت عائلة الكونت فى سرداب قديم ملىء بالأتربة والوطاويط ...

وقد فتحنا التوابيت كلها حتى وجدنا مومياء الكونت وعلى صدرها وجدنا صندوقاً عاجيًا فيه رسالة كتبها خادم الكونت للأجيال القادمة :

ـ أكتب هذه الرسالة لمن يأتون بعدى كى أحذرهم من خطر داهم شنيع ، لقد اختار الشيطان هذه المنطقة التعسة مهدًا له ..

إن (دراكيولا) هو أول مصاص دماء يولد فى هذا البلد ، إن سيدى الكونت معروف بين الفلاحين بقسوته وطغيانه واستخدامه جيشًا من المرتزقة لفرض سلطانه ، كل هذا جعلهم يسمونه (الشيطانى) أو (دراكيولا) ..

بدأ الكونت فى كل مساء يشرب مزيجًا لعينًا من دم الخنازير والنبيذ والتوابل بدعوى أنه يعيد الشباب ، وبدأ يدرس السحر الأسود .. ويزداد انعزالا وغرابة ..

لقد بدأ وجهه يستطيل وصوته يأخذ نبرة عواء الذئب فى الليالى المقمرة ، وصار يخرج فى المساء ويعود فى الفجر وينزوى بالساعات فى بدروم القصر وحيدًا .. بل إنه لم يعد يأكل ..

وفى كتب السحر وجدت تفسير حالته .. إن هذا المزيج الذى يشربه يقود إلى الخلود بأشنع الطرق .. إنه يحيل من

وقد فتحنا التوابيت كلها حتى وجدنا مومياء الكونت وعلى صدرها وجدنا صندوقًا عاجيًا ..

يدمنه إلى خفاش بشرى يتغذى بدماء البشر ليلًا وينام فى تابوت نهارًا ويموت إذا رأى ضوء الشمس ..

وكان لابد أن أعرف ..

صباح اليوم التالى استجمعت شجاعتى ونزلت بدروم القصر حيث توابيت أسرته ، وكانت رائحة العطن تملأ المكان ، والفئران تمرح فى حرية تامة ، وفى تابوت رخامى وجدت ما كنت أبحث عنه (هذا الجزء غير واضح فى المخطوط) لاتنفس .

ووجهه شاحب شحوب الموتى وعلى شفتيه قطرات من دماء لم تجف بعد ، وعيناه مفتوحتان تحدقان فى لاشىء ..

اقتربت من شفتيه واستجمعت شجاعتى وفتحتها .. فوجدت صفين من الأسنان الدقيقة المدببة كأسنان الضوارى ، انتابنى ذلك الرعب المجهول الذى يشلّ العقل تمامًا .. جريت فى هلع وقد تسلطت علىّ فكرة واحدة : الهرب .. لاأدرى لأين .. ونسيت أن أعيد غلق التابوت ..

إذن غدا الكونت مصاص دماء ، وصار عالة على نفسه وعلى الآخرين ، إذن كان أهل القرية محقين حين كانوا يرسمون الصليب حين يمرون بالقصر ، وإذن كان هذا هو

سر جثة المتسول العجوز التى وجدوها قرب القصر ملقاة على الكلأ وفى عنقه ثقبان أحمران ..

لهذا نزع الكونت الستائر البيضاء والأيقونات ، ولهذا كان ذلك العواء الذى يهز القصر فى الليالى القمرية .. ولهذا .. ولهذا .

عدت لكتب السحر أقرؤها ، إن مصاص الدماء كابوس .. ومن واجبى أن أجد أنا دواء لهذا الكابوس خاصة أنه لم يمتص دمى بعد ربما لحاجته إلىّ .

إن قتل مصاص الدماء أمر سهل ، فهو يموت من أى رمز دينى .. إنه مخلوق رمزى ، وجوده رمز ومصرعه يتم بالرموز ، الضوء واللون الأبيض والفضة والكتب السماوية كلها تقتله ، لكن الطريقة الفعالة هى وتد من الخشب يدق فى صدره ، ثم تتلى صلاة الموتى عليه ، وتحذر كتب السحر من أنه : كما أن مصاص الدماء رمز فموته رمز ، إنه يعود للحياة مرة كل مائة سنة ليعيث فى الأرض فسادًا ، ثم إنه بعد أن ينشر الرعب والموت يقتل على يد إنسان لم يتلوث ... و ...

وهنا أحسست بشىء غير عادى فى الحجرة .. رفعت رأسى فوجدت الكونت (دراكيولا) واقفًا على رأسى يسد الباب وهو يبتسم ابتسامة صفراء رهيبة ، لقد جاء الليل دون أن أدرى وحين نهض وجد غطاء التابوت مكشوفًا وأدرك أننى فهمت !

ونظرت إليه فى هلع ..

لم يعد وجهه يمت بصلة للوجه الذى عرفته .. ناباه الفظيعان .. بشرته الشاحبة المتجعدة .. رائحة الكبريت التى تتحدث عنها كل كتب السحر ، تحرك أمام المرآة فلم أجد له صورة ، حتى الشمعة لم تترك له ظلًا على الحائط ..

صرخت : يا إلهى .. أنقذنى !

أجفل .. وتراجع لحظة .. فجريت للباب كما لم أجر فى حياتى إلى غرفتى .. أغلقت الباب بالمفتاح ، وعلى الفراش أغمى علىّ ، وكان آخر ما رأيته هو مقبض الباب يتحرك ، لكن الباب كان مغلقًا ..

نعم .. صار الكونت هو خليفة الشيطان فى الأرض ، إنه مريض وهو يعلم ذلك ، ولقد قررت أن أريحه ..

سأقتله اليوم ، كتب السحر قالت إنه سيموت على يدى رجل لم يتلوث .. وأنا هو ذلك الرجل ، أنا القاضى والمدعى والجلاد معًا ، سأنزل إليه بالخنجر الفضى والشموع وقبل كل شىء . بإيمانى ..

ولئن كنت ملوثًا ولقيت مصرعى فليعلم من يجد هذه الرسالة ما علمته أنا ولينتظر عودة الكونت كلما مرت مئة عام ، ولينتصر من هو منا على حق .

خادم الكونت / جيسيب ميخائيل

فى عام الرب ١٥٥٩

بعد نهاية الرسالة وجدت تعليقًا صغيرًا بخط د. (ريتشارد) يقول :
ـ إنهما وجدا مومياء الكونت وعلى صدرها هذا التحذير للأجيال القادمة ..

بعد نهاية الرسالة وجدت تعليقًا صغيرًا بخط د . ريتشارد يقول : إنهما وجدا مومياء الكونت وعلى صدرها هذا التحذير للأجيال القادمة ، وأن هذا يعنى أن الخادم وُفق فى مهمته ..

انتهت المذكرات ..

أغلقت مفتاح الأباجورة وأغلقت عينىّ لأريحهما فى الظلام .. إذن فهذه الخزعبلات هى ما يشغل ذهن العالم العظيم .. وكل هذا الكلام الأبله الذى يقولونه فى أفلام الرعب الرخيصة عن الهنود والأرسبرطيين ومومياوات الصين ... هراء ...

ومضيت أسلّى نفسى بمحاولة تخيل شكل الشر فى العالم .. غول أحمر العينين .. أخطبوط له ستة أذرع .. لم أستطع .. ولسبب لا أدريه لم تفارق ذهنى صورة وجه يهوذا فى لوحة دافنشى .. النظرة التعسة الآثمة .. نظرة الخاطئ الذى لا يملك سوى أن يخطئ ..

ولم أدر كيف ، ولا متى غرقت فى سبات عميق ..

★ ★ ★

٣ ـ المومياء ..

فى اليوم التالى وبعد انتهاء جدول أعمال المؤتمر لهذا اليوم، قابلت د . ريتشارد فى كافتريا المؤسسة، يرشف القهوة ويدخن .. حييته وقد بدا لى أن الليلة السابقة كانت مجرد شىء سخيف .. وبعيد جدًا ..

قلّب د . ريتشارد الكريمة، على سطح فنجانه، ثم سألنى :

ـ قرأت الأوراق ؟

ـ نعم ....

ـ وما رأيك ؟

صارحته برأيى فى الموضوع كله، فالتمعت عيناه غضبًا ووضع فنجانه فى الطبق :

ـ خزعبلات ؟! أنت تظن أننى وواحد من أعظم علماء التاريخ فى أوربا كنا ضحية خدعة قذرة لفّقها لنا أحد الظرفاء .. حسنٌ .. لقد كلف هذا الظريف نفسه ما لا يطيق وأعدّ كل هذه الأوراق، وأعد المومياء وانتظر سنوات عديدة حتى يخطر لأبله مثلى أن يبحث فى هذا السرداب حتى يجد هذه الأشياء .. يا لها من دعابة !

ـ ليس هناك مايثبت رأيى لكن ليس هناك ما ينفيه .

هزّ رأسه فى ضيق، ثم عاد لبروده الموروث وقال :

ـ أريد منك أن تأتى إلىّ هذه الليلة .. هناك شىء جديد أريد أن تراه .. نفس الموعد ..

مرة أخرى على العشاء أجلس أمام نظرات يهوذا الآثمة، على الناحية الأخرى من المائدة يجلس البرفسور « ماكس لوفارسكى » وهو ـ كما عرفت أنت ـ يهودى لم يكف لحظة عن الحديث عن ماعاناه فى معتقلات النازيين، لماذا خلق الله العلماء مملّين إلى هذا الحد ؟

بعد العشاء التفت إلىّ د . ريتشارد، وقال :

ـ إن ما سأريه لك الآن هو خلاصة بحث سنوات من عمرى أنا والأستاذ (لوفارسكى)، لا أطالبك أن تقتنع، لكنى أطالبك ـ وهذا من حقى ـ بالاحترام لكل ما ستراه، أضف لهذا أن ما ستراه هو سر سيظل طى الكتمان ..

نطق العبارة الأخيرة بلهجة مرعبة تعمد الضغط على كلمة (سيظل) فشعرت بالرهبة، وقلت :

ـ أعدك بهذا ..

نهضت معهما إلى القبو ـ قبو البيت الإنجليزى الأنيق حيث رائحة الخمر المعتق والعطن ورائحة شىء ما لم أستطع أن أحبها .. أزاح د . ريتشارد الخيش عن صندوق مغلق فى أحد الأركان .. وفتحه ثم هتف بلهجة مسرحية :

ـ أيها السادة .. ها هى ذى مومياء الكونت دراكيولا ..!

من العدل أن أقول إننى لم أشعر برهبة ولا فضول ولا شىء على الإطلاق .. بل ظللت محتفظًا بتعبير رجل العلم الذى لا (يندهش) من شىء ولكن (يهتم) به .

كانت مومياء عادية لها كل مزايا وعيوب أية مومياء أخرى .. جلد متآكل .. خصلات شعر متناثرة .. أنف مجدوع .. شىء واحد كان مختلفًا .. الأسنان .. ، لماذا كانت فى فك هذا الشىء تلك الأنياب الحادة الشبيهة بأنياب الذئاب ..؟

ابتسم د . (كامنجز) فى تشف .. وهمس :

ـ ما رأيك ..؟

لم أرد بل سألت (لوفارسكى) :

ـ كيف استطعتم إحضاره هنا ؟

ـ لقد نجحنا فى تهريبه بوسائل معقدة على أنه شحنة أدوات حفر ، والسلطات فى تراسلفانيا لا تعرف حتى بوجوده هنا .. لهذا لم تبحث عنه أصلًا ..

أشعل د . (ريتشارد كامنجز) عود كبريت وقربه من المومياء .. فجأة انطفأ .. فهتف :

ـ « هل ترى ؟ ثمة غاز خامل يتصاعد من هذه المومياء.. » لم أستطع أن ابتلع كل هذا .. لكنه واقع .. أمامى الآن الدليل الحى على خطأ الافتراضات العلمية وعلى وجود السحر ، وعلى قابلية كل الأساطير للتصديق وعلى ...

سألت د . (ريتشارد) :

ـ لكن لماذا تضيّعون كل هذا الوقت والمجهود ؟

ـ الحقيقة ..

قالها د . (ريتشارد) فى بساطة .. واستطرد :

ـ الحقيقة التى ستهب العلم مرونة لا تقاس ، تكفى لاستيعاب الأساطير وكل معتقدات الشعوب البدائية وتحدث انقلابًا لم يشهد له العالم مثيلًا ..

إننا نقف الآن أمام الدليل الحىّ على وجود السحر ..

صعدنا لحجرة المعيشة بعد دقائق ، وجلسنا فى صمت حول مجموعة من المستندات القديمة ..

قلت فى حيرة :

ـ لم أفهم بعد .. ما السر فى إطلاعى أنا بالذات على هذا ؟

ـ أنت مسلم يا د . (رفعت) ..

ـ نعم ..

ـ وأنا كاثوليكى و د . (لوفارسكى) يهودى ، وهذا سيجعل شهود المعجزة هم نماذج لثلاثة أديان ..

ـ أية معجزة ؟

ـ عودة دراكيولا ..

* * *

إنه كان يقتل فى كل مرة .. ويعود لصورة المومياء التى نراها .

٤ ـ طقـــوس ..

مد د . (ريتشارد) يده إلى الأوراق وفتح إحداها وشرع يقرأ :

ـ تقول المستندات إن مصاص الدماء يعود للعالم كل مائة عام لنشر الفساد والشر ، ثم يموت على يد شخص لم يتلوث ..

وهنا قال د . (لوفارسكى) عابثًا بلحيته :

ـ إن لدينا شواهد تاريخية على ظهور مخلوقات لها صفات مصاص الدماء والعثور على جثث رقبتها مثقوبة فى الأعوام ١٧٥٩ و ١٨٥٩ ، وبشكل أكثر تحديدًا فى الليالى المقمرة التى يتوازى فيها المشترى مع المريخ ، ويمكن القول إنه كان يقتل فى كل مرة .. ويعود لصورة المومياء التى نراها .

ـ وهل كان يعود من تلقاء نفسه ؟

قال د . (لوفارسكى) :

ـ كلا .. بل بمعونة بعض الأوغاد الذين يؤدون بعض الطقوس اللازمة للبعث .

وهنا بدأت أفهم .. كنـا فى العـام ١٩٥٩ .. أى أن هذا هو العام المنتظر السعيد .

وفتح د . (ماكس لوفارسكى) ورقة صفراء وشرع يقرأ :

ـ أول الطقوس هو أن يؤديها أشخاص بلغ منهم الشر كل مبلغ ... أى نحن ..!

قال د . (ريتشارد) :

ـ إننا عبيد الفضول العلمى، وكلنا على استعداد لعمل أى شىء من أجل الحقيقة ... إن العلم هو ما نحيا من أجله ..

ـ ثانى الطقوس هو شرط القرن . أى أن تكون مائة عام قد مرت على مصرع الكونت ..

ـ ثالث الطقوس هو شرط القمر . أى أن يكتمل البدر ويتوازى المشترى مع المريخ ..

الشرط الثانى أو الثالث سيتحققان بعد أسبوع . ليلة الأربعاء ..

الشرط الرابع هو شرط الوطواط .. يجب أن يوضع على صدر الجثة مومياء وطواط وهذا ليس صعبًا .

الشرط الخامس هو شرط الدم .. بحيث أن يوضع دلو من الدم بجوار المومياء .

ـ دم بشرى ؟

ـ لم يحدد النص ذلك ..

وهنا لاحظت شيئا .. التمعت عيناى فى فخر كأننى طفل فاز فى لعبة المساكة ، وصحت :

ـ لحظة من فضلك .. التاريخ يحكى أنه ـ فى كل مائة عام ـ كان بعض الأوغاد يجدون التابوت ويمارسون نفس

الطقوس، فكيف تأتى أن التابوت لم يزل فى نفس المكان، والرسالة لم تزل حيث يتركها الخادم منذ خمسة قرون ؟

احمر وجه د . (ريتشارد) فترةً ، ثم همس فى استسلام :

ـ لقد فاتنى التفكير فى هذا بالفعل ..

قال د . (لوفارسكى) :

ـ لربما فكر من يقتل الكونت فى كل مرة أن يترك الرسالة فى موضعها للأجيال القادمة ؟

ـ ولماذا يحرص من يقتل الكونت على إعادة جثته للتابوت فى كل مرة ؟ لماذا لا يدفنها فى أى مكان ؟ لماذا لا يمزقها أو يحرقها ؟ لم أعرف أن قتلة مصاصى الدماء منظمون إلى هذا الحد ؟

ساد الصمت للحظات وأدركت ـ فى فخر ـ أن الرجلين يكرهاننى فى جنون، لكن هذا هو العلم ، وهما يعرفان هذا خيرًا منى ..

قال د . (ريتشارد) بعد تفكير :

ـ حسن يا د . (رفعت) . إننا مصممان على التجربة، والتى لم يبق لها سوى أسبوع ، فإذا لم تقبل فعلى الأقل قل ذلك الآن حتى يتسنى لى أن أجد عالمًا أثق به من الجالية المسلمة فى إنجلترا .. الوقت ضيق كما ترى ..

من أنا حتى أرفض أمرًا كهذا ؟ ستكون ليلة الأربعاء

ليلة مثيرة بكل المقاييس ... ، هكذا قلت لنفسى .. كنت ساذجًا كما قلت لك ...

ـ إذن فلنبدأ .. الوقت ضيق كما قلت أنت ...

لم يكن هناك أى شىء يقنع العالمين سوى التجربة فى ذاتها ، وكنت واثقًا من نفسى أننى بدأت أعد عبارات العزاء التى سأقولها لهما حين تشرق شمس يوم الخميس والمومياء لم تزل كما هى ـ مومياء ـ يا لها من لحظة !. لحظة يعرف كل منهما أنه أضاع عمره يطارد وهمًا .. يا للحسرة ..!

كان الأمر واضحًا فى ذهنى تمامًا .. هذه مومياء قام أحدهم بنشر أسنانها لتبدو كالأنياب وستظل كذلك ، لا أرى الموضوع على أى ضوء آخر .

فى الصباح جاء (جوناثان) صبى البقال بلفة صغيرة اتضح أنها خفاش ميت اصطاده من الكنيسة المهجورة المجاورة ، وأخذ جنيهين كاد يطير بهما فرحًا ..

وجلست أنا و د . (ريتشارد) نحنط الخفاش فى الحديقة مستعملين الفورمالين .

ـ لنفرض أننا لم نستطع السيطرة على دراكيولا حين ينهض . فماذا نفعل ؟

قال د . (لوفارسكى) :

ـ إذا نهض ، لقد كان مفزعًا فى العصور الغابرة .. عصور الشمعدانات والعربات التى تجرها الخيول

والكونتيسات ... الخ ، لكنه اليوم سيعود فى عصر انشطار الذرة والكهرباء . لن يكون سوى مجرد حيوان تجارب طريف ..

قال د . (ريتشارد) :

ـ سنقوم بنقله إلى معمل مظلم فى جلاسجو ونقيده هناك ، ثم ندرس كل شىء ... تركيب دمه ... أنسجته ... ضغط دمه ... درجة حرارته ، وإذا مات سنشرحه .. لربما أتى اليوم الذى نعقد له فيه مؤتمرًا صحفيًا أو ننشر مذكراته فى كتاب اسمه (عشت فى تابوت) يحطم مبيعات السوق !

قلت :

ـ إن هذا المسخ محظوظ جدًا ... لكن أتمنى لو عدت للحياة بعد مائة عام لأرى حال السياسة والعلم والمجتمع والناس وقتها ..

فاحت فى المكان رائحة لاتطاق لأحشاء الخفاش اللعينة ، واستمررنا فى عملنا على مضض .

ـ اللعنة ..؟ فهمت الآن لماذا لايُبعث مصاص دماء إلا كل مائة عام ..

ثلاثة علماء يعملون فى صبر من أجل إثبات وهم ...

★ ★ ★

٥ ـ شىء مّا ..

جلست فى حجرتى المريحة التى أعطانيها د . (ريتشارد) فى بيته الريفى الجميل .. كنت قد عبرت الفندق من ثلاثة أيام، لكنى تركت هنالك أمتعتى لسبب ما ، لم أدر ما هو ..

شعور غامض فى أعماقى جعلنى أترك جزءا من ذاتى خارج جدران هذا البيت .

أشعلت سيجارة وشرعت أفكر .. ما الذى جعلنى أقحم نفسى فى هذه القصة ؟ .. إنه ذلك الولع المجنون بالمجهول .. تلك اللذة الحريفة الكامنة فى قصص جدتى عن الغولة والنداهة ، وكنت أتساءل : كيف تبدو هذه المخلوقات ؟ ! .. ولماذا!

اختار الفلوكلور الشعبى لها صورة الأنثى .

ثم كبرت وبدأت أذهب للسينما .. وشاهدت (لون شانى) ـ ذا الألف وجه ـ (وفنسنت برايس) يلعبان دور الكونت الغامض شارب الدماء .

لكم فتنتنى شخصية (دراكيولا) .. ولكم حيرتنى .. ولكم أفزعتنى !

واليوم .. هأنا ذا قاب قوسين من حقيقة هذا الكابوس ، بل إن ـ صدق أولا تصدق ـ مومياء هذا الكونت ترقد فى

بدروم البيت الذى أنا فيه الآن ! .. بل إن موعد استيقاظها هو بعد ثلاثة أيام لا أكثر ! ماذا سيقول أصدقاء طفولتى فى (المنصورة) لو عرفوا ما أنا فيه الآن ؟

الآن كل شىء معد .. دلو دم الخنزير .. الخفاش المحنط .. ورفقة اثنين من العلماء حادى المزاج لا يهمهما سوى العلم أيا كانت نتائجه الوبيلة .

أضأت الأباجورة فوجدت جوار السرير مجموعة كتب ، وعلى السطح كانت رواية (برام ستوكر) الشهيرة (دراكيولا) ، لابد أن د . (ريتشارد) تعمد وضعها جوار سريرى لجعلى أعيش فى (الجو) ..

أطلقت سبة فى سرى ثم فتحت الرواية وبدأت أحداثها تجرفنى .. يا للخيال المروع العبقرى المريض .. ! لكم أحسد مؤلفها .

كنت قد وصلت للجزء الذى يدخل فيه الكونت على ضيفه الغافل موثق العقود (جوناثان هاركر) وهو يحلق ذقنه .. وهنا يفكر الموثق : كيف لم أر هذا الرجل فى مرآة الحلاقة ؟ .. وتتصلب عينا الكونت على جرح فى عنق موثق العقود نجم عن الحلاقة ... و ...

كنت قد وصلت لهذا الجزء حين دق الباب فأجفلت .. ثم عدت لعالم الواقع ، فنهضت للباب وفتحته ، كان القادم هو د . (ريتشارد) ..

وهنا يفكر الموثق : كيف لم أر هذا الرجل فى مرآة الحلاقة ؟..

ـ هل نمت ؟

ـ من الواضح أننى لم أفعل ..

نظر إلى الرواية على الفراش .. وضحك :

ـ إذن أنت تستعد لضيفنا ؟

ضيفنا ؟.. قلت فى حنق :

ـ تبًا لها من راوية !

ـ وماذا تعلمت منها ؟

ـ تعلمت ألا أحلق ذقنى أمام (دراكيولا) لئلا أجرح نفسى ، وعندئذ ..

ـ وماذا أيضاً ؟

ـ تعلمت ألا أثق بالأشخاص الذين لا تنعكس صورتهم فى المرآة ! ..

انفجر د. (ريتشارد) يضحك ..! كان يرتدى الروب وتحته قميص وربطة عنق ، وقد بدا غاية فى الأناقة والوسامة ، ثم أنه أشعل سيجارة ـ ولم يقدم لى واحدة كعادته ـ وجال بنظره فى أرجاء الغرفة .

ـ لماذا لا تضع بعض الآيات القرآنية هنا وهناك ؟

أشرت إلى الكومودينو بجوار الفراش ، إلى المصحف الصغير الذى أعطتنى إياه المرحومة أمى قبل أول سفر لى بالخارج .

ـ ها هو ذا .. لكن بغرض القراءة وليس لحمايتى من مصاص دمائك ..

هز رأسه مؤيدًا .. ونهض فى تثاقل متجهًا إلى الباب مارًا أمام المرآة المزخرفة المعلقة .. لا !.. لابد أننى متوتر الأعصاب .. هل المرآة غير مصقولة أم أن الإضاء غير كافية ؟ أم أن هذا الرجل لايعكس ظلًا فى المرآة بالفعل ؟!

التفت لى فى اهتمام وسأل :

ـ ما سر هذا الهلع على وجهك ؟!

هل أصارحه ؟.. كلا .. كلا .

ـ لاشىء .. إنه مفعول روايتك لا أكثر .

فكر قليلًا ثم قال :

ـ . (رفعت..) هناك شىء هام ..

ـ ما هو ؟

ـ شىء أريد عمله ولا أريد للدكتور (لوفارسكى) أن يعلم به ، هل تعدنى ؟

ـ أعدك ..

ـ إذن اتبعنى إلى البدروم بعد عشر دقائق ..

وألقى سيجارته وانصرف فى تؤده .

بمجرد أن خرج أغلقت الباب وهرعت للمرآة .. إن صورتى واضحة فيها ، ولكن .. ما أكثر الاعيب

الضوء ! . رب زاوية انكسار كاملة تحيل الماء إلى مرآة ، فلماذا لا تتحول المرآة ـ فى زاوية ما وإضاءة ما ـ إلى سطح غير عاكس ؟ ..

وحتى إذا لم تعكس المرآة صورته ؟ .. ما معنى ذلك ؟ .. أنا لا أومن بالأشباح .. وحتى إذا طبقنا منطق الخرافة نفسها فلا توجد أى ضرورة لهذه الزيارة ، ولم يستتبعها شىء ..

لماذا يريد د . (كامنجز) لقائى فى البدروم ؟ .. طبعًا ليس للعب الورق ولا لمشاهدة مجموعة طوابعه .. وبالطبع ليس لامتصاص دمى ، لأنى لا أومن بكل هذا الكلام الفارغ ..

ما الذى يريده من مومياء (دراكيولا) ؟ .. ما الشىء الذى لا يريد أن يعرفه د . (لوفارسكى) ؟ !

على كل حال مضت العشر دقائق ..

ارتديت الروب وخرجت من باب الغرفة قاصدًا البدروم .. ظلام الردهة وبقايا العشاء على المائدة لم ترفعها مسز (كامنجز) بعد .

باب غرفة د . (ريتشارد) يفتح فى بطء ..

ـ د . (رفعت) ؟

ـ نعم ..

لاحظت أنه يتكلم بصوت عال .. فخفضت صوتى فى همس كالفحيح :

ـ والآن هيا ..

ـ هيا ماذا ؟

ـ البدروم ..

ـ البدر .. هل أنت بكامل قواك العقلية ؟ !

ماذا يحدث ؟ .. عم يتحدث هذا المخبول ؟ .. لكن وجهه كان جادًا صارمًا لا أثر للدعابة فيه .. كلماتى اصطدمت بحاجز صلب بارد فسقطت مهشمة عند قدمى .

ـ ألم تطلب ذلك منى ؟

ـ دقيقة واحدة .. طلبت منك ماذا ؟

ـ النزول للبدروم ! ..

ـ متى ؟

ـ منذ عشرة دقائق فى حجرتى ! ..

أعتقد أنه لابد من اختصار هذه المحادثة التى لابد أن أدركت فحواها ، هو يعرف ويؤكد ويقسم أنه لم يأت لحجرتى أبدًا ، وأنا واثق تمامًا أنه كان عندى لسبب يعلمه الله وحده ، محادثة مملة كحوار الطرشان نتيجتها أن كلًا منا اعتقد أن الآخر كاذب أو معتوه ..

ـ هل تعرف يا د . (رفعت) ؟

قالها فى غموض وهو يضيق حدقتى عينيه مستطردًا :

ـ يبدو أن كلينا على حق !

ـ كيف ؟ ..

ـ الأمر واضح .. هناك من حاول استدراجك للبدروم .. لهذا زارك فى صورتى .

ـ هل سنعود لهذا الهراء ؟ ..

ـ قل لى .. ألم تلحظ شيئًا غير عادى فى هذا الزائر ؟ ..

فكرت لحظة ثم قلت بلا مبالاة :

ـ لا شىء سوى أنه .. لم يكن يترك انعكاسًا فى المرآة !

★ ★ ★

٦ ـ مزيد من الألغاز ..

هل لك فى شريحة جامبون ياد .. (رفعت) ؟

سألتنى مسز (كامنجز) فى رقة ونحن جلوس حول مائدة الافطار ، هززت رأسى أن لا .. فصبت المزيد من القهوة فى فنجانى قائلة إننى أبدو منهكًا ..

ـ كانت ليلة شنيعة سيدتى ، زارنى أحدهم ، و ..

وهنا أخرستنى نظرة شذراء من عين د. (ريتشارد) كى لاأسترسل فى كلامى ، غريب هذا ! .. فى شمس الصباح كان ما حدث أمس يبدو ضبابيًا وسخيفًا ..

إن ما حدث ليلًا هو دعابة لاأكثر ، أو هو على أقصى افتراض هلوسة شاذة نتيجة لقراءتى لقصة (برام ستوكر) الشنيعة .

بعد الإفطار دخلنا مكتب د. (ريتشارد) والتففنا حول صاحب الدار الذى أشعل سيجارة .. وقال مبتسمًا :

ـ أمس تلقى د. رفعت زيارة لطيفة ..

وحكى قصة الأمس لـ د. (لوفارسكى) الذى أخذ يصغى وهو يرمقنى بعينين حادتين كالصقر .. فما أن انتهت القصة حتى ساد الصمت ، بعد دقائق قال د. (لوفارسكى) بصوت رتيب كالقضاة :

ـ أعتقد أن كل شىء يتوقف على د . (رفعت) ..

سألته فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟

قال فى ثقة ؟

ـ لاغبار على قصة د . (ريتشارد) .. لكن قصتك تحتمل المناقشة !

غلى الدم فى عروقى :

ـ هل تعنى أننى كاذب ؟

ـ لاياصديقى .. بل أعنى أنك واهم ..

هززت رأسى .. الواقع أننى ـ أنا نفسى ـ لم أعد واثقًا من شىء .. كل ما رأيت كان ملموسًا وماديًا إلى حد مرعب .. لكنى لم أهلوس من قبل ، لربما كانت كل الهلاوس مقنعة هكذا ..

ثم .. تذكرت شيئا .. يالى من أحمق ! ..

ـ تعاليا معى إلى غرفتى ..

وفى غرفتى كان الفراش بحالته ، لأننى لاأرتب سريرى أبدًا عند الاستيقاظ .

ـ تريان الآن ما أعنيه ..

وأشرت إلى رواية (برام ستوكر) المفتوحة .. والمصحف الصغير على الكومودينو .. موضوعات حديثى مع زائر الليل ..

نظر إلى ما أشير إليه .. الدليل الدامغ على سلامة عقل .. هناك على مشمع الأرضية كان عقب سيجارة محترق ..

قال د . (ريتشارد) :

ـ هذا لايعنى شيئا .. من الطبيعى أنك أقحمت فى هلوستك بعض الموجودات الحقيقية فى غرفتك .

ـ وهذا ؟

نظرا إلى ما أشير إليه .. الدليل الدامغ على سلامة عقلى .. هناك على مشمع الأرضية كان عقب سيجارة محترق ، سيجارة من النوع الذى يدخنه د . (ريتشارد) ولايدخنه أحد غيره ..

قال د . (لوفارسكى) :

ـ شىء بسيط أيها الشاب !.. لقد قدم لك د . (ريتشارد) إحدى سجائره ..

ـ إنه لم يقدم لى سيجارة فى حياته !..

ـ اسمع ياصديقى ..إن الحياة مليئة بالتعقيدات ولاتحتمل أكثر .. لماذا تملأ الدنيا صراخا على ..

على عقب سيجارة ؟

صرخت فى غيظ .

ـ أنا أقول إننى واثق أن شخصًا ـ أو شيئا ـ اقتحم حجرتى ليلًا ودعانى للنزول للبدروم ، وهذا العقب هو الدليل على صدق كلامى ..

ثم نظرت لـ د . (ريتشارد) ، متوسلًا :

ـ د . (ريتشارد) .. لماذا لا تقول إنك كنت تمزح وتريحنا من هذه السفسطة ؟

ـ تحشم أيها الشاب ! .. أنا لا أكذب ..

ـ لكن التفسير العلمى الوحيد هو أنك تكذب .

ـ أنا لا أسمح .. وأطالبك بأن تكون أكثر لياقة مع رجل فى سن أبيك ..

واشتعلت الكلمات . وأظن أننى كنت على وشك ضربه أو هو على وشك طردى، لولا أن تدخل د . (لوفارسكى) بجسده البدين بيننا مهدئا النفوس :

ـ يا سادة .. أرجوكما ! .. لقد نسينا شيئا .

توقفنا عن المناقشة ، كى نعرف ما سيقوله هذا اليهودى :

ـ ما الذى كان على د . (رفعت) أن يفعله فى البدروم ؟

ـ لا أدرى ..

ـ ولا أنا ..

ـ إذن ننزل البدروم ونلقى نظرة .

ونزلنا للبدروم .. التابوت الكئيب العمل ورائحة العطن .. لا يوجد شىء جديد أو يستحق الانتباه ، لا شىء يدل على شىء ..

يا لغرابة ما نحن بصدده .!

لقد بقى يومان على الموعد المشهود وما زال كل منا عند رأيه ، لكن علامات الاستفهام تتكاثر حول كل شىء .

من سيضحك ضحكة الانتصار ليلة الأربعاء؟

* * *

٧ ـ زائـــر الليـــل ..

فى منتصف الليل صحوت على صوت زجاج يتهشم ..

استغرقت دقيقة كى أفهم أين أنا ، ومن أنا ، وماذا أفعل فى الفراش .. ثم عشر ثوان أخرى أثب من الفراش حافيًا ـ وبالبيجامة ـ إلى باب الغرفة .. ثم إلى الطابق الثانى حيث سمعت الصوت .

هذه غرفة مكتب د . (ريتشارد) ، لا أحد هنالك لكن الستارة كانت تتموج فى صمت فى هواء الحجرة المظلمة مما دلنا أن اللوح المكسور هو هنا ..

أشعلت النور فلمحت شظايا زجاج على الأرض .. وبالطبع ـ كما هى العادة معى ـ دست على شظيتين بقدمى الحافية فأطلقت سبّة .. وجلست على الأرض كى أخرجها .

ثم ..لمحت عيناى ...

هناك ـ خلف المكتب ـ كان شخص مختبئا كى لا أراه .. الشخص الذى اقتحم النافذة الزجاجية بهذا العنف من أجل شىء لا أعرفه .. ولو جريت من الغرفة فقد يهاجمنى ؛ لذا تشاغلت بمعالجة قدمى وأنا أسبّ بصوت مسموع ، الدم يصفّر فى أذنى والأدرينالين يرتفع فى دمى

وقبضتى تتوتّر ، ثم فى لحظة واحدة وثبت فوق المكتب وألقيت نفسى على هذا المتلصص ..

تلقيت لكمة فى بطنى جعلت الهواء يخرج من فمى .. إلا أنى تحاملت ورفعت ركبتى لأركله أسفل بطنه .. سمعته يئن ..ولكن من هو ؟

كان ملثمًا .. ولم أر سوى عينين باردتين كشتاء لندن ، رماديتين كضبابها ، وجهت لكمة قوية إلى أنفه خلف القناع حتى أننى شعرت بغضروف أنفه يكاد يتهشم .. ثم لكمة فى صدره .

لم أكن رياضيًا فى حياتى ، ولم يكن الكاراتى والجيدو والتايكوندو معروفين لجيلنا ، إلا أن كل إنسان يمكنه أن يقاتل بشراسة ، طالما وجد هدفًا قويًا .. وهل يوجد هدف أقوى من أن أمنع هذا المتعصب من قتلى ؟

والتحمنا فى عراك طويل .. كان الوغد قويًا وشرسًا لكنى كنت حانقًا وخانقًا مما جعلنى خصمًا مساويًا له تقريبًا .. وفجأة امتدت يده إلى شىء ما على المكتب ، وانهالت فوق رأسى ضربة من جسم معدنى ثقيل .. كلا ..! لن أفقد وعيى ..! تحاملت .. لكن الأرض هى التى خذلتنى !..

لابد أن فترة فقدانى الوعى لم تزد على خمس دقائق ..

وكان قد قرب وجهه من الكونت وهو يهمس بكلمات ما لم أتبينها ..

وعلى الأرض كانت أداة لتثقيب الورق ملقاة بجانبى هى التى حسمت المعركة السابقة ..

كان الغثيان يقتلنى لكنى نهضت .. جريت مترنحا للباب المفتوح ، ونزلت السلالم جريا إلى المكان الذى كنت أعرف أنى سأجده فيه ، البدروم ..

نعم .. كان هناك فى الظلام بجوار تابوت الكونت (دراكيولا) وقد أضاء الكشاف الكهربى ووضعه بجواره على الأرض ، وكان قد قرب وجهه من الكونت ، وهو يهمس بكلمات ما لم أتبينها .. كأنها صلاة وثنية غامضة أو شىء من هذا القبيل ..

آه !.. ألن ينتهى هذا الجنون ؟

صرخت صرخة أفزعتنى أنا نفسى .. ورفعت زجاجة ملقاة على الأرض ولوحت بها فى الهواء كالهراوة ثم انقضضت على هذا المدعى .. ولولا أنه أجفل لهشمت الزجاجة جمجمته فى ثوان .. وثب كالملسوع إلى الكشاف الكهربى فاطفأه .. ثم انهالت علىّ لكماته فى الظلام ، إن هذا الوغد يرى فى الظلام كالوطاويط ..

وفى هذه المرة لم أقاوم كثيرًا .

ظللت فترة ألهث فى الظلام ومذاق الدماء المالح يملأ فمى .. أعتقد أننى فى حاجة لاستعادة لياقتى فى المرة القادمة .

نور البدروم يُضاء .. د . (ريتشارد) و (لوفارسكى)

بثياب النوم وعيونهم منتفخة من أثر النعاس يحيطون بى .. صحت فى سخرية مرة :

ـ أهنئكم على نقاء ضمائركم ..! إن الضجة التى أحدثناها كانت كفيلة بإيقاظ الموتى ، وأنتم لم تصحوا إلا الآن ..!

وشرعت أحكى ماحدث ، وماأن سمع د . (ريتشارد) قصتى حتى امتقع وجهه ووثب كالقط إلى غرفة المكتب ، وهنا جال خاطر مرعب فى ذهنى .. ماذا لو عاد ـ كعادته ـ من أعلى ليقول إنه لايوجد لوح زجاج مكسور وأنى كنت أهلوس ؟

إلا أنه عاد بعد دقائق وقد بدا عليه الاهتمام وهو يحمل معه أداة لتثقيب الأوراق تلك التى كادت تهشم رأسى منذ دقائق .. وقال :

ـ إنك كنت محظوظًا ياصديقى ..

أشرت إلى الزجاجة المكسورة الملقاة على الأرض وقلت :

ـ والوغد كذلك محظوظ مثلى ..

ـ د . (رفعت) إننا أناس متحضرون ، وأرى أن ماحدث لا ينبغى أن يمنعنا من ارتداء ثياب لائقة حتى نناقش الأمور فى مظهر متمدين :

ـ سنلتقى فى غرفة مكتبى بعد عشر دقائق !

آه من هؤلاء الإنجليز ! .. يريد منى حين أجد لصًا فى دارى أن أنهض من الفراش وأمشط شعرى وأرتدى ثياب السهرة ثم أذهب إليه وأنحنى كجنتلمان قائلًا :

ـ سيدى .. إذا لم تغادر دارى خلال دقيقة أعتقد أننى سأصل بصددكم إلى قرارات خطيرة !

آه .. تبًا ! . المهم أننى عدت لحجرتى وارتديت ثيابى ، وتأملت وجهى فى المرآة .. لم تكن هناك عاهات مستديمة والحمد لله ، ولكن ماذا سيكون تفسير هذين السيدين لمغامرتى القصيرة الفاشلة ؟

وفى غرفة المكتب حيث الستارة لم تتطاير .. سألت الرجلين :

ـ والآن .. ما قولكما ؟

قال د . (لوفارسكى) متحاشيا النظر فى عينى :

ـ إذا أردت رأيى لقلت إن هناك أحداثًا غامضة لا يجمع بينها سوى شىء واحد .. فى كل مرة إما أن نقابلك متجهًا للبدروم أو نائما فيه ..

قال د . (ريتشارد) :

ـ إننى أتساءل عن قصتك القادمة التى ستبرر بها نزولك للبدروم ليلا ! .. صحت فى غيظ وقد بدا لى الرجلان شديدى السماجة والجهل .

ـ وهل تظنان أننى أحب هذا البدروم العطن وتلك المومياء السخيفة ؟ .. هل أنا أكذب لأبرر عشقى الشديد للجلوس جوار التوابيت فى الظلام ؟

لم يستطع د . (ريتشارد) أن يمنع ابتسامة على شفتيه إثر كلامى .. ورفع يده محاولًا تهدئتى :

ـ أنا لم أتهم .. ولم أقل هذا .. ولكنى قلت إن هناك محاولة ما لجعلك تنزل البدروم وحدك ليلًا .

ـ إن هذا لم يدر بخلدى قط ، لكنه صحيح ..

ـ ولنفرض هذا .. فما المفروض أن يحدث هناك ؟

ـ هذا ما اجتمعنا للتفكر فيه ..

ـ ولكن لماذا لا يكون زائر الليلة لصًا .. لصًا عاديًا ..

نظر لى د . (لوفارسكى) نظرة ذات معنى .. وقال :

ـ اللصوص لا يجثمون جوار التوابيت ليتلوا صلاة غامضة .. أنت قلت هذا بنفسك ، هل تذكر ؟ ..

أضاف د . (ريتشارد) :

ـ واللصوص لا يحطمون الزجاج بهذه الرعونة ، هذا اللص أحمق أو هو أراد أن تسمعه أنت ..

ـ واللصوص لا يدخلون البيوت من الطابق الثانى ما دام عندهم نوافذ الطابق الأول .

تنحنح د . (ريتشارد) ونهض إلى الستارة وأزاحها .. ثم قال :

ـ هناك ما هو أغرب .. هل لاحظتم كسر الزجاج ؟.. إنه مجرد فتحة صغيرة لا تسمح أبدًا بمرور إنسان ..

نظرت فى عينيه .. وقلت :

ـ لكنها تسمح بمرور ..

نعم .. تسمح بمرور وطواط .. !

قال د . (لوفارسكى) :

ـ المزيد من الألغاز .. ! هل تريدان رأيى ؟ ..أعتقد أن بعض الجماعات السرية أو عبدة الشيطان على علم بوجود المومياء لدينا .. وهم يحاولون سرقتها .

ـ لكن أحدًا لم يعلم ما نعلم نحن ..

ـ طالما علمنا ما علمناه من المخطوطات فماذا يمنع أن يعلم آخرون نفس الشىء ؟

ـ إن هذا يدعونا لمزيد من الحذر .. لم يبق سوى يوم واحد على كل حال ..فلندعه يمر على خير بأية طريقة ..

ثم هز إصبعه فى وجهى .. وقال محذرًا :

ـ لا مزيد من الزيارات الغامضة للبدروم لأن المرة القادمة لن تمر على خير .. أريد أن تعود لمصر قطعة واحدة دون ثقوب !

ونزل الرجلان السلم فى حين تخلفت عنهما .. كنت أفكر .. ما دام اللص لم يدخل من النافذة فهو أحد المقيمين بالبيت .. وما دام قويًا فهو رجل .. وما دام ليس أنا فهو

أحد العالمين .. وما دام رمادى العينين قوى البنية فهو ليس د . (لوفارسكى) ، إذن هو ...

نعم .. إن هذا يتفق مع ما حدث بالأمس .. دائمًا هو د . (ريتشارد) فى كل حادث غامض ثم يظهر ليؤكد لى أننى أهلوس ، لكن .. ما الذى يخفيه هذا الرجل ؟

إنه يداعبنى دعابة عملية قاسية أو هو مخبول تمامًا وهو شىء لاأستبعده .. إن من عاش حياته وسط هذا الهراء لابد أن يكون مخبولا ..

ولكن لماذا أنا بالذات ؟ .. لأننى أصغرهم سنًا وأكثرهم رعونة .. ولأنه لم يزل يحمل احتقار المستعمر لأهل البلد الذى استعمره .. لم تكن ثلاث سنوات قد مضت منذ حرب السويس .. فهل هو ذلك الإنجليزى المتعصب الحاقد حقًا ؟ .. لا أفهم .

على كل حال لم يبق سوى يوم واحد .. وليس فى جعبتى سوى الحذر والانتظار .

دخلت حجرتى وأغلقت بابها ، اتجهت للشباك وفتحته .. نظرت إلى أعلى .. إلى نافذة غرفة المكتب المكسورة .. خيل لى أن شيئا ما يخرج ببطء من فتحة الزجاج .. ثم تبينت ما هو .. كان وطواطًا صغيراً سرعان ما فرد أجنحته مرفرفًا ودار دورتين فى الهواء ثم اختفى فى الظلام .. !

* * *

٨ ـ ليلة الأربعاء ..

تم إعداد كل شىء ..

وفى ذلك اليوم خرجت مع مسز (كامنجز كاترين) فى نزهة رائعة فى الريف الإنجليزى وتحدثنا عن كل شىء فيما عدا المومياء الموجودة بالبدروم ، وقد خشيت أن ينزلق لسانى بشكل أو بآخر ، لكنها كانت تعرف كل شىء فيما يبدو ..

عدنا للبيت عصرًا فتناولنا وجبة لا بأس بها ، ثم دعانا د . (ريتشارد) إلى النوم لأننا سنقضى الليل ساهرين .

وفى حجرتى غرقت فى سبات عميق ..

ترانسلفانيا .. الشيطان .. دراكيولا .. د . ريتشارد .. سالى .. يهوذا .. دم وخفاش وقمر .. وخفاش ودم ... مانتا عام .. جنين الشر .. (دراكيولا) يدخل الغرفة .. جئت لأصطحبك .. كلا ... ليس أنا .. دعنى فرصة أخرى .. أنا لست عزرائيل .. أنا مجرد مصاص دماء بائس .. نظرة يهوذا .. ليتنى كنت خفاشًا يغرد فى الصباح .. كلا .. الخفاش لا يغرد .. كانت فلاحة ذاهبة للحقل فى قريتى .. حين .. حين ماذا .. لا أذكر .. لا تقترب منى ..

وللحظة لم أعرف أين أنا .. هل ظلام الغرفة حولى هو جزء من الحلم؟أم أننى أنا نفسى حلم،و .... لقد غابت

الشمس وقد جاء الليل، ولكن لماذا لم يوقظنى أحد ؟ ..

وهنا أدركت ما أيقظنى . إنه صوت خطوات غريبة تمشى فى الردهة خارج الحجرة .. ثمة شىء مريب فى هذه الخطوات .. إنها ليست خطوات إنسان يمر عرضا ، بل هى خطوات واثقة متأنية تهدف إلى أن أسمعها أنا ! ..

بحذر مددت يدى للأباجورة بجوار السرير وفككت سلكها واتخذت منها أداة صالحة للضرب ، وببطء اتجهت للباب . وهناك لشدة ذهولى ـ تجددت الخطوات ـ وتجمد الدم فى عروقى .. صاحب الخطوات يقف الآن خلف الباب مباشرة !!

أهو (ريتشارد) ؟ أم (لوفارسكى) ؟ ولكن لم هذا التلصص ؟ مددت يدى إلى المقبض وفتحت الباب . وعلى ضوء الردهة الخافت وجدت خيالا مألوفا ..

ـ د . (رفعت) .. لقد حدث شىء .

ـ (كاترين) ؟ ماذا أتى بك هنا .. وماذا يحدث ؟ كانت شاحبة ترتجف ، وعلى عينيها الزرقاوين الجميلتين غشاوة متجمدة من الدموع لم تنحدر بعد ..

ـ لا أحد هنالك :

ـ لا أفهم ..

ـ لا أحد هنالك .. كل غرفهم خالية ، مامى ودادى و د . (لوفارسكى) ..

ـ د . (رفعت) .. لقد حدث شىء .

ـ (كاترين) ؟ ماذا أتى بك هنا .. وماذا يحدث ؟..

كل الغرف خالية !

ـ كلهم ؟ .. وكم الساعة الآن ؟

ـ الحادية عشرة مساءً .

ـ إذن بقيت ساعة على ميعاد نهوض المسخ .. لكن أين ذهبوا ؟ هل رحلوا ؟

هل اختبئوا فى مكان ما ؟ . ولم تركونى أنا وكاترين ؟ !

ـ أنا خائفة يا د . (رفعت) .. لقد نمت نومًا عميقًا وحين نهضت لم أجد أحدًا ..

كانت ترتجف كالورقة .. فمددت ذراعى وطوقتها .. تحرك شىء فى قلبى ، للمرة الأولى ، فطنت إلى أننى عشت خمسة وثلاثين عامًا من عمرى وحيدًا .. يا له من شعور غريب أن تكون مسئولًا عن إنسان ما . وأن يحتاج إليك إلى درجة البكاء .. أخذت بيدها ونزلنا إلى البدروم ..

كل شىء كما هو ... والتابوت المشئوم فى مكانه .. ومومياء الخفاش ودلو دم الخنزير ... قلت لها :

ـ أنت تعرفين ما كان مفروضًا أن يتم هذه الليلة ؟ ..

هزت رأسها أن نعم ..

ـ وتعرفين أن الموعد بقيت عليه ساعة ؟

ـ نعم ..

ـ هل بحثت عن الآخرين فى البيت جيدًا ؟

ـ « وفى الحديقة ... وفى البدروم ... لا أحد ... لقد تركونا ... » أشعلت سيجارة وجلست على حافة التابوت مفكرًا .

ـ هل نطلب الشرطة بالتليفون ؟

ـ ليس لدينا واحد ، أقرب تليفون على بعد نصف ساعة مشيًا .

ـ رائع !!

وهنا ساد الظلام التام البدروم .. لقد انقطع التيار الكهربائى ويا له من وقت لانقطاعه ..

أشعلت شمعة كانت ملقاة على الأرض .. ظلانا ساقطان على الحائط كأنّ عملاقين يراقبان ما نفعله ونقوله ..

قلت وأنا أنفث دخان السيجارة :

ـ هل تعلمين يا صغيرتى ؟ يخيل لى أن كل الخطوط تتلاقى فى نقطة واحدة ..

إرغامنا ـ أنا وأنت ـ على أن نكون المسئولين الوحيدين عن عودة هذا الشيطان .. هل نحن أصلح الناس لذلك ؟ هل يرى الشيطان فينا من الشر الخفى ما يؤهلنا لذلك ببراعة ؟

- لقد صرنا مجبرين ..

هتفت كاترين فى حنق :

- ولكن لماذا نحن مجبرون ؟ نستطيع أن نغادر هذا البيت الرهيب وبعد نصف ساعة نصل للعمران .. الدفء ، الأمان .

صرخت فيها :

- كلا .. لو فعلنا هذا لظللنا للأبد نحترق بنيران الفضول الذى لا يرتوى ، ولظللنا نلعن جبننا ونتساءل سؤالًا لا إجابة عليه أبدًا :

هل كان (دراكيولا) سينهض ؟

إننا ظاهريًا أحرار لكننا فى الواقع مقيدون بأصفاد متينة من الفضول العلمى ..

نحن لا نستطيع إلا أن نستمر .. وسنستمر ..

- ولكن .

- لا لكن .. لو ضيعنا الفرصة فلن تعود قبل مائة عام نكون نحن فيها قد شبعنا موتا .. نموت دون أن نعرف .

كانت صغيرة السن ولم تفهم كل كلامى ، لكنها لم تكن تستطيع أن تتصرف وحدها .. إن من دبّر هذا الموقف لهو شيطان ذو عقلية جهنمية يعرف تمامًا أن من سيتعرض لهذا الاختبار هو لابد مستمر فيه ..

- وأين الآخرون ؟

- لا أدرى .. ولا وقت الآن للإجابة عن هذا السؤال .. المهم هو أن نعد هذا المكان لاستقبال الكونت .

بقيت عشر دقائق على منتصف الليل . وأحضرت دلو دم الخنزير وقربته من التابوت ، ووضعت الخفاش المحنط على صدر المومياء .. ثم أطفأت الشمعة حتى لا تضايق سيد الديجور عند نهوضه ..

بعد سبع دقائق يتعامد المشترى على المريخ ، وينكشف وجه القمر من وراء الغمام .. وبعد سبع دقائق يعرف العلم إلى الأبد ما إذا كان السحر خرافة أم لا .. وما إذا كان القدماء واهمين أم لا .

أما أنا فكنت أردد كالمجنون بالعربية التى لا تفهمها :

- لن ينهض هذا الشىء لن ينهض .. أنا واثق من هذا وإلا غدونا فى موقف لا نحسد عليه .

بقيت أربع دقائق ... ثلاث ..

* * *

٩ ـ المفـــاجأة ..

الساعة الآن الثانية عشرة والنصف ..

لم يحدث شيء . برغم الظلام الدامس، أرى حدود الجسد الممسجى فى التابوت، وعينى كاترين اللامعتين، وأشم رائحة الفورمالين، وأسمع دقات قلبى ... ، لم يتغير شيء ..

كان كل هذا وهما ..

أشعلت الشمعة فى تؤدة فأضاءت المكان إلى حد ما .. وقد بدا لى الكونت مبتذلًا وسخيفًا إلى حد لا يوصف .. نفس الوجه والشعر المتآكل .. و ... و ...

ـ انتهى الأمر ..

قلت لكاترين لكنها لم ترد ، نظرة غريبة شاردة فى وجهها .. لقد حطمتها هذه التجربة ، لكن لم يكن لى مفر ، المهم الآن هو معرفة أين ذهب الأغبياء الآخرون ..

ـ قد يكونون خرجوا لغرض ما ..أو هم مختبئون فى دعابة سمجة ، أو ..

وأشعلت سيجارة ، غريبة رائحة الكبريت هذه .. كنت أحمل قداحة ، لهذا اندهشت للرائحة ، د . (ريتشارد كامنجز) الأحمق الذى أفنى حياته فى ألعاب صبيانية ، وذلك اليهودى البدين ، وأنا الذى سأرجع للقاهرة محملًا بذكريات باسمة لا أكثر .. رائحة الكبريت .

الآن أستطيع القول إن العلم هو العلم .. وكل ما عداه هو خزعبلات ، ولكن لماذا تنظرين إلىّ يا (كاترين) هذه النظرة الوالهة .. كنت ما أزال وسيمًا محتفظًا بشعرى ، لكنى لم أكن جذابًا لهذه الدرجة ، خاصة لفتاة مراهقة .

ـ كاترين .. هيا نصعد .

لم ترد ، وفجأة انفرجت تضحك فى هستريا .. تضحك ... وتضحك فى الظلام .. لقد جُنت المسكينة !.. ثم نهضت ، وهى تترنح إلى .. إلى دلو الدم ومدت يدها فيه وأخرجت أصبعها السبابة ملوثًا ، و ... لعقته فى تلذذ .

ـ كاترين ، أيتها المجنونة !..

التفتت إلىّ بشفتيها الحمراوين وهمست فى صوت بارد :

ـ أنت لم تفهم بعد أيها الغبى .. لم تفهم .

ما أغرب هذا الذى تفعله ، لقد جُنت تمامًا .. و .. التابوت ظل فى مكانه كل هذه القرون ممددًا به الكونت والصندوق العاجى على صدره .. لهذا بدت لى قصة د . (لوفارسكى) غير منطقية وملفقة ، لأنه لايمكن أن يقتل فى كل مرة ويعيدون تسجيته فى التابوت بنفس الوضع ..

ـ لن تفهم أيها الأحمق .

أسنانها تلتمع فى الظلام ، وهنا فهمت كل شيء .. لم يحدث أبدًا أن نهض (دراكيولا) من تابوته ، كانت الطقوس

تنم بجوار تابوته فى كل مائة عام ، من ثم تنتقل روحه لتحل فى أحد ممارسى الطقوس ، يصير هو (دراكيولا) الجديد .. فى حالتنا هذه كنت أنا و (كاترين) المختارين لهذا الغرض ؛ لهذا استبعد الآخرين بصورة ما .. والآن (كاترين) ـ بعد منتصف الليل ـ تغيرت كثيرًا جدًا .. (كاترين) شربت الدماء وتلتمع أسنانها الحادة فى الظلام وتصدر رائحة الكبريت اللعينة ..

وأنا حبيس معها فى البدروم !..

لقد فهمت كل شىء متأخرًا جدًا ..

ـ د . (رفعت) : تعال وقبلنى ..

صوت مغر قادم من عالم بعيد ، إذن هذا هو كل شىء .

ـ تعال ..

ولهذا لم أتحول أنا أيضًا ، لأنه لابد لمصاص الدماء الوليد من وجبة عشاء .. وبماذا يتعشى إذا غدوت أنا أيضًا مصاص دماء ؟!

وقبل أن أفهم أنا نفسى ما حدث ، أطلقت ساقىّ للريح ، جريت كما لم أجر فى حياتى ، خرجت من القبو .. الردهة .. مدخل البيت .. الظلام الدامس جعلنى أصطدم مئات المرات بأشياء مجهولة ، قلبى كاد يثب من حلقى .. الحديقة وضوء القمر يغمرها ..

وبدأت أركض .. أركض .. أركض .. ومن بعيد لمحت أضواء العمران ورأيت أناسًا عاديين ..

★ ★ ★

٩ ـ الخاتمة ..

خلال أربع وعشرين ساعة كنت قد عدت لبيتى السعيد فى (الدقى) بالقاهرة ، قضيت أيامًا عديدة أتخيل (كاترين) تهيم فى الفلاة المحيطة ببيتهم تبحث عن عابرى السبيل وتخيلتها تموت بوتد خشبى فى صدرها ..

بعد شهور تشجعت وأرسلت خطابًا إلى د . (ريتشارد) ـ أو إلى عنوانه على الأقل ـ فلم يصلنى أى رد ..

أرسلت ثلاثة خطابات أخرى ، إلى أن وصلنى خطاب من مالك البيت الجديد يقول لى إن د . (ريتشارد) لم يعد يعيش هناك ، وأنه ارتحل إلى أستراليا مع عائلته ، ولا يعرف عنوانه هناك ..

كم من ليلة سوداء قضيتها أستعيد ما حدث وأحلله . هل كنت واهمًا ؟ هل كان هذا حلمًا ؟ أم كان هذا حقيقة تتلخص ببساطة فى أن الفتاة قد انهارت أعصابها بفعل التجربة الجهنمية ؟ أم كان هذا واقعًا عشته حين حُبست وحدى فى البدروم مع مصاصة دماء ؟..

لا أدرى .. ولن أدرى أبدًا .. هل قتلت (كاترين) بيد إنسان لم يتلوث ـ إنسان مثل أبيها ـ وهرب بعدها إلى أستراليا ؟

أم أنها قتلت ذويها فى تلك الليلة وجاءت غرفتى تولول وتبكى أم أن الأمر كله دعابة عملية قاسية أجادوا حبكها ..؟

أسئلة كثيرة بلا إجابة ، ولا أرجو لها إجابة .. كل ما أعرفه أننى لن أحضر أبدًا أي مؤتمر عن أمراض الدم .. ولن أذهب أبدًا إلى (يوركشاير) أو (أستراليا) .. وأبدًا لن أشاهد فيلمًا لدراكيولا ! ..

ـ شعرات عديدة شابت فى رأسى وأنا أنتظر أن يصلنى انتقام الكونت (دراكيولا) إلى بيتى فى الدقى خاصة وأنا ـ على ما أظن ـ آخر من يعرف حقيقته ، وحزم ثوم علقتها خلف الشبابيك والأبواب ، وأوان فضية ، وآيات قرآنية .. لكن لم يحدث شيء والحمد لله إما لأن الله ستر ، أو لأنى كنت واهمًا فى مخاوفى ..

... وبعد سنتين من هذه الأحداث ، قابلت شيطانًا من نوع آخر فى مكان آخر أنسانى ما حدث تمامًا .. لكن هذه قصة أخرى ...

د . رفعت إسماعيل

القاهرة ـ يناير ١٩٩٢

★ ★ ★

انتهى الجزء الأول (بحمد الله)